

إحياء المقومات الدينية

للاستاذ عبد العزيز محمد التركي

— — — — —

لقد اشتهر الشرق منذ القدم بأنه منبت كل دين ، ومنبع كل عقيدة . منه انبعثت التعاليم الدينية ، وانتشرت في مختلف أرجاء العالم ، ومنه انبثقت العقائد الروحية ، واستقرت في قلوب شتى الشعوب . وإن تاريخ الحضارات يشهد بأن الذى بمث الطاقة الحيوية في نفوس الشرقيين للخلق والابتكار في جميع ميادين الحياة من علم وفن ومدنية ، هي البواعث الدينية التي تضع قوانين حياتهم الاجتماعية ، وتنظم وسائلهم الاقتصادية ، وتسئ نظمهم الدينية . ولم تخالف مصر الفرعونية الشرق في روحيتها ، ولم يتخلف قدماء المصريين عن الإيمان العميق بالدين ، ولم تهمل الحضارة الفرعونية في اتخاذ الحوافز الدينية محركا فعالا لنهضتها الخالقة

لقد قال هيرودوت عن المصريين إنهم شعب تقى ورع ، يخاف الله . ولم يعمد هيرودوت عن الحقيقة حينما تلمس في قدماء المصريين تلك النزعات الدينية السامية ، إذ أن تاريخهم الطويل وراثتهم الحضارية الضخم يعطينا من الأدلة ما يفيتنا عن شهادته . لقد لعبت عقيدة البعث الدور الأول في بناء حضارة الفراعنة ، إذ أن إيمان المصريين بحياة أخرى بعد الموت ، حصر همهم في الاستعداد لهذه الحياة . وتمت تأثير هذه العقيدة الدينية نشأت العلوم والفنون ، وتمت رعاية رجال الدين تقدمت حتى بلغت حدا من السكال لا يدانيه إلا ما عتاز به الحضارة المعاصرة من رقي وتقدم آمن قدماء المصريين بعودة الإنسان إلى الحياة مرة أخرى ، ولكن عقيدتهم تشترط لإمكان تمتع الإنسان بهذه الحياة الثانية : أن يبقى الجسد سليما لا يعتره التلف ، لأن الروح لا ترجع إلى جسد فاسد ؛ وإن نال البلى من الجسد فإن الروح مصيرها الهلاك والفناء . فحرص قدماء المصريين على المحافظة على جثث الموتى حرصا على الخلود . ولقد كان هذا الحرص من أقوى البواعث الدينية التي ساعدت على وضع أسس حضارة تبرز ذكرها جميع الحضارات القديمة ، فلا نمجب إذا نشأت الحضارة الفرعونية مع بناء المقابر ، وتطورت

مع تطورها . وكانت أولى المحاولات التي استعان بها قدماء المصريين على المحافظة على الموتى ، هي دفن الميت في حفرة بسيطة ترديم بالتراب والرمل ، ولكن هذه الطريقة لم تصن الجسد . فلما قوت عقيدة البعث في النفوس وازداد تأثيرها في العقول ، أظهروا احتراما أعظم للموتى ، فوضعوهم فروع الأشجار على هيئة صندوق خشبي داخل القبر ، كما دفنوا مع الميت بعض أنواع الطعام التي كانوا يظنون أن الروح تطعم منها ، ولكن سرى ما كان يتأكل كل الخشب ، ويعتري الجثث الانحلال ، مما دفع قدماء المصريين إلى ابتكار صنع الطوب اللبن ، وشيدوا منه القبور والمصاطب . فلولا رغبة قدماء المصريين في صيانة جثث الموتى ما عرفوا صناعة الطوب اللبن ، أو لتأخرت صناعته بعض الأجيال ، ولاشاع بناء مختلف المباني من منازل وغيرها من هذا الطوب . ولكن الطوب اللبن ليس من التامة بحيث يقوى للصمود حتى يوم البعث ، فاستبدل به الأحجار الجيرية التي استخدمت في بناء المصاطب . وأحدث بناء المصاطب من الأحجار الجيرية ثورة خطيرة في فن البناء ، ساعدت على ظهور بعض العلوم الرياضية من حساب وهندسة ، وضع أثرها في إقامة الأهرام التي محتاج تشييدها إلى مهارة معمارية تستعين بالفن الهندسي ، وتستند إلى عمليات حسابية دقيقة . وهكذا كان الحافز الديني لحفظ الموتى من التلف من أهم البواعث التي عملت على تقدم فن المعاد ، ووجهت اهتمام المصريين إلى وضع أسس على الحساب والهندسة

ولم تغف عناية الفراعنة بالموتى عند حد بناء مقابر متينة تحميها ، وإنما امتدت هذه العناية كذلك إلى الجثث نفسها ، واجتهدوا في سبيل الوصول إلى عقاقير تحفظها من الفساد ، فاكشفوا التحنيط معجزة العلم الفرعوني . ولقد أتاحت عمليات التحنيط من نزع المخ وفتح الجنب وإخراج الأحشاء وغسل البطن بعقاقير خاصة ثم خياطة الفتحة ، فرض دراسة جسد الإنسان ، ومعرفة كثير من أجزائه ووظائفها ، والإقدام على إجراء كثير من العمليات الجراحية المتنوعة ، كما هيأت الظروف لفحص خواص بعض النباتات الملاجية لإعداد العقاقير وتركيب الأدوية التي تدفع عن الإنسان المرض . وعلى هذا النحو حثت عقيدة خلود الروح على اكتشاف فن التحنيط الذي مهد إلى

لهذه الحاجات ، اعتقادا بأن قراءة الروح لل عبارات السحرية الدونة على الجدران ، تحول هذه الصور إلى حقائق ، فأنتج المصريون الشيء الكثير من روائع الفن

وزيادة في الحرص وإمعانا في الاحتياط عمد قدماء المصريين إلى وضع تماثيل كثيرة الموتى في المقابر ، حتى إذا ما لحق الجثة أى عطب ، حلت الروح في التمثال فيموت الإنسان من جديد إلى الحياة الثانية . ولكن التمثال عرضة للكسر ، ولذلك وضعت تماثيل عديدة لنفس الميت ، حتى إذا ما انكسر تمثال حلت الروح في آخر . وإلى هذا الاعتقاد يرجع الفضل في وجود ذلك العدد الضخم من التماثيل المصرية القديمة التى بلغ بعضها حد الإتيان الفنى ، مما جعلها تعتبر أجمل أمثلة النحت فى العالم ، لأنها تتوخى بساطة وإنسانية عبر عنها فى يسر ورشاقة . وفن النحت يحتاج إلى أحجار ومعادن ، فجاءت القراءة فى سبيل استخراج هذه الأحجار والمعادن من المحاجر والمناجم التى نظم استقلالها ، وأصبحت تشغل كثيرا من الأيدي العاملة ، وتدر على خزانة الدولة مالا وفيرا

لقد كانت عقيدة البعث الباعث الأول على وضع أسس كثير من العلوم والفنون والآداب . ولقد كانت الديانة الفرعونية تقدم الحوافز والأفكار التى هيأت وضع أصول العلوم الرياضية ، ومهدت السبيل لتقدم الطب وفن الجراحة ، وساعدت على رقى فن البناء وفن الرسم والنقش والتصوير ، وفن النحت ، وأدت إلى اختراع الكتابة وظهور الآداب الدينية ، ودفت إلى اكتشاف صناعة الورق وتنظيم استقلال المحاجر والمناجم . فكان لهذا الباعث الدينى الفضل الأول فى قيام الحضارة الفرعونية ، بل كان السبب الوحيد فى أطراد نموها وتطورها ، وظلت هذه الحضارة محافظة على كيانها آخنة فى الرقى والتقدم ، ما دامت تستوحى عقيدة البعث ، وتستلهم الإيمان بخلود الروح ، ولكنها اضمحلت حين بدأت تنخبو العقائد الدينية فى النفوس ، وأصبح لا سلطان لها على القلوب

ويؤمن المصريون بدين جمع شمل العرب ، ووحد قبائلهم ، وكون منهم دولة ، حفزها للخروج من شبه الجزيرة العربية فى سبيل إعلاء كلمة الله ، فاستطاع العرب على قلة عددهم وهدوم من

تقدم الطب وفن الجراحة فى عهد القراءة تقدما فاق تقدم جميع الشعوب التى عاشت فى العصور القديمة

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات لم يطمئن قدماء المصريين كل الاطمئنان إلى متانة المقابر ، أو يثقوا كل الثقة فى مهارتهم فى التحشيط ، واعتقدوا أن جثث الموتى ما زالت عرضة للتلف ، فاستعانوا بآلهتهم ، وطلبوا منها العون والمساعدة لتحفظ أجسادهم من البلى الذى يهدد أرواحهم بالفناء ، فكانت تتلى بمض الأدعية التى تدفع عن الميت الأشرار . ولما أخذت هذه الأدعية فى الازدياد والتكاثر بمرور الزمن خاف الكهنة عليها من النسيان ، فدعت الحاجة إلى تدوينها ، فاخترت الكتابة الهيروغليفية وهى كتابة رمزية تستخدم الصور فى التعبير ، وسرعان ما استعان بها المصريون فى حماية الموتى ، فدونت على جدران المقابر والأهرام أدعية وطلاسم ظن أنها تحفظ الموتى ، وتحول المآكل والمشارب المرسومة إلى حقائق ، كما وضع فى نوايت الموتى لفائف من ورق البردى تحوى تعاويذ تحفظ الروح من الأخطار ، وتقيها أشرار القبر

فالرغبة الأكيدة فى بقاء الجسد سلبا دعت إلى اختراع الكتابة التى سرعان ما عم استخدامها فى الوثائق العامة والتجارية ، ثم نشأت كتابات أخرى أكثر منها اختزالا ، خرجت من مصر ، وانتشرت فى بقاع العالم المتمدين فى ذلك الوقت . ولما احتاجت الكتابة إلى ورق اخترعت صناعة الورق وتقدمت على أيدي المصريين حتى أصبحت سلمة مربحة وهامة ، تباع فى الأسواق الخارجية . أما الكتابة على جدران المقابر فتطلب مهارة فى الرسم والنقش والتصوير ، لأن الكتابة الهيروغليفية المقدسة ، تعتمد على صور شتى الحيوانات والنباتات ومختلف الأشياء ، فكان الحافز الدينى دافعا ملهما عمل على تقدم فن الرسم والنقش والتصوير ، وبرع المصريون فيه براعة يستر رسم الخطوط وعودت الخيلة على تصور الكائنات الحية ، ودربت القدرات على التعبير الصادق لحياة هذه الكائنات وحركاتها ، ومرتها على الاستمانة بالألوان الزينة التى تظهر الصور على أنها حقائق حية ، حتى خيل لقدماء المصريين أن يستنصروا من وضع المآكل والمشارب والحاجات التى ظن أنها تلزم الميت ، واكتفوا رسم صور حية

الغريبيون ..

ولم يقف أثر الإسلام في الحياة الثقافية عند النواحي الأدبية والاجتماعية ، بل تعداه إلى العلوم الرياضية خصوصاً الحساب . ذلك العلم الذي يحتاج إليه خبراء التورث في مهام عملهم ، لأن كل من يشتغل بعلم الفرائض الذي يحدد نسبة ميراث كل فرد حسب الشريعة الإسلامية يجب أن يجيد مختلف عمليات الحساب ، ولذلك وجب على الجميع تعلمه فتوفر المسلمون على دراسته ، فمروا الأرقام العربية البسيطة السهلة التداولية بيننا الآن ، وأخذها الغرب عنهم ، وترك أرقامه الرومانية المعقدة الصعبة ، ففتحت الأرقام العربية آفاقاً جديدة لعلم الحساب . ولقد أدى تعلق المسلمين ببحث العمليات الحسابية إلى الاهتمام إلى « الصفر » الذي كان له أهمية كبرى في مستقبل العلوم الرياضية . وكذلك قاد اهتمام المسلمين بالحساب إلى اكتشاف علم الجبر وبذلك مهدوا السبل لتقدم العلوم الرياضية فيما بعد حين بدأت نهضة الغرب الحديثة

إن الإسلام كان على الدوام يعاون العلوم التي تخدمه ، ولم يوجه المسلمون أية عناية جدية لعلم من العلوم إلا إذا كان يدعم أحكام الإسلام . وكذلك لم يعاون الإسلام فناً من الفنون إلا إذا هدف إلى نشر تعاليمه . وما اهتم المسلمون ببعض الفنون إلا لأنها تحقق فرائض دينهم ، وتهيئ السبل لأداء عباداته . وإن لم يكن للعرب قبل الإسلام فن يذكر ، إلا أنه لم يكذب بحسب المسلمون بحاجتهم إلى أما كن لإقامة فريضة الصلاة حتى بدأ يبرز الفن الإسلامي في الوجود ، وأخذ يترعرع في رحاب المساجد بيوت الله ، فبعد أن كانت المساجد الأولى مجرد أبنية بسيطة أعدت للصلاة والوعظ ؛ سرعان ما تطور الفن الممارى الإسلامى ، وأصبح من بين المسلمين فنانون مهرة ، أقاموا كثيراً من المساجد والأبنية الدينية كالمدارس والتكايا ذات المصلى ! معبرين فيها عن أفكار هندسية تنم عن بصيرة فنية حاذقة . لقد شيدت معظم المساجد على نظام تقليدى أوحاه الإسلام ، فأصبح كل مسجد يشتمل على منبر وعراب وصحن وإيوان وقباب ومثناة ، وكلها تقريباً من إبداع القريحة الإسلامية الفنية

ولا توخى المسلمون في بناء المساجد أن تكون نفخة رائعة مهيبه ، لتدل على ما في الإسلام من عظيمة وقوة ، زينت جدران

أن يدكروا أمما عريقة في المدنية ، وأن يهزموا شعوبا ظلت قرونا تسيطر على العالم ، وذلك لأن الدوافع الدينية ملكت قلوبهم ، وغرس الإسلام في نفوسهم روح الاستشهاد ، فبذلوا رخيصة حبا في نصره دين خاتم الأنبياء ، وبغية الفوز بالجنة يوم تمت أجمعين وظلت أفئدة المسلمين تطوف بالقرآن الكريم سباحة في ملكوت آياته البينات ، تحرص عليها حرصها على أعز ما تملك . فلم يتوانوا في تدوين القرآن ، ولم يفرطوا في العناية بقلته ، فكانت اللغة العربية اللغة الرسمية في جميع أرجاء الإمبراطورية الإسلامية ، وسارعوا بوضع قواعد النحو العربي بضبط قراءة القرآن وفهم معانيه . ولما انشغل علماء اللغة بإظهار ما في القرآن من إيجاز بلاغى ألفت الكتب في البلاغة العربية ، ولما شغفت العقول بالتمتع فيما أورده القرآن من تعاليم وأفكار وأسرار انكبت على تفسيره ، ولما صادف المفكرون قصصاً وأخباراً وردت في القرآن وغبوا في تحديد زمن وقوعها ومعرفة ظروفها وأسبابها ، مما دعا إلى ظهور كتب تتناول هذه القصص والأخبار ، فهبت لقيام علم التاريخ ، وأخذت موضوعات التاريخ تتسع عندما اهتم المسلمون بتتبع السيرة النبوية وسلوك الخلفاء الراشدين . فكان الحرص على القرآن الكريم من أولى البواعث الدينية التي حفزت على خلق جو ثقافى أوجد كثيراً من العلوم مثل النحو والبلاغة والتفسير والتاريخ

ولم يكن الإسلام مجرد عقيدة دينية تلزم من يعتنقها أداء ما يفرضه عليه من عبادات ، بل كان محور الحياة الاجتماعية ، فاستمدت منه التشريعات التي تنظم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، ومن المسلمون القوانين التي أسست علم الفقه وأصوله ، وبذلك بعث قرآن الإسلام نهضة فكرية دوت الأذهان على استغلال العلم واستنباط القوانين ، حتى إذا ما أخذت الحركات المناهضة للإسلام تشتد في هجومها ، وتندرع بالنطق ، وتظلمن تعاليمه بالفلسفة ، وتناقش معجزاته مناقشة عقلية ، قام بالرد على هذه الحملات طائفة من العلماء ساهموا بما أتوا به من حجج لدحض ما ألصق بالإسلام من افتراء بوضع أصول علم الكلام الذي ما وجد إلا ليدافع عن معتقدات الإسلام ، وتسليح في دفاعه بسلاح أعدائه ؛ أى الفلسفة والمنطق ، فانتشرت الدراسات الفلسفية بين المسلمين ونبغ فيهم فلاسفة حملوا شملة العلم والثقافة إلى أن استلها منهم

اكتساب مهارات ترفع من شأننا في خضم الحضارة الحديثة، لأن حيوية الجو الديني الذي يجب أن نعيش فيه عقولنا يدعها نحس بأنها تعيش في بيئة تروح إليها، ونشعر بأنها تسكن في بيت تألفه وبألفها، فنساب وتنطق، لا يعوقها عائق، وتأخذ في الإبداع دون تمتر. ولكن إذا مات الجو الديني الذي يجب أن تتربى فيه عقولنا، وخرب البيت الذي تمودت أن تنشأ نفوسنا بين جنباته مات الباعث الذي يوحى إلى عقولنا بما يخلق، وخربت نفوسنا فتفقد انطلاقها وانسيابها، وتظل حبيسة الجود والركود، فتشل الواهب وتعطل القدرات. وإذا ما طال أمد الركود، فقد يؤدي في النهاية إلى ضرب من الجذب العقلي، يشعرنا على الدوام بنقص يفرس فينا ميلا للأخذ من الغير. وبدل أن نتمتع على استعداداتنا ومهارتنا نركن إلى طلب عون ممن صقلت استعداداته، وبرعت مهارته، وبدلاً من أن نستوحى مقوماتنا النفسية تكالب على ثقافة من نظن أنهم بلغوا الكمال في كل ما تناولوه من علوم وفنون، وفي هذا انتحار فكري ما يبعده انتحار، لأن الفكر المستضعف قد يتولاه الخمول، ويقعده الكسل عن أي إنتاج. وقد يمجزه الشعور بالنقص في آخر الأمر عن النهوض، ويربطه بمجلة ذلك الفكر الغريب عنه بهاته الهم على ما يتقاط من موائده الشبهة من فئات لا تقنى ولا تشيع، لأنه ارتضى العبودية الفكرية، ولم يحاول أن يبحث عن الطرق والوسائل التي تحرر روحه من أغلالها، وتحطم القيود التي تحول دون انبثاق مواهبه وشحن استعداداته

عبد العزيز محمد التركي

الرواية

مجلة القصص الرفيع

تظهر في أول كل شهر وفي منتصفه
الاشتراك السنوي ١٠٠ قرش في مصر والسودان،
١٥٠ قرشاً في الممالك الأخرى

المساجد بنقوش وزخارف، فبرع المسلمون في الحفر على الأحجار وفي رسم الزخارف خصوصاً الزخارف الهندسية، وفي نقش الآيات القرآنية بخطوط جميلة خلابة تظهر فن الخط العربي وهكذا أخذت ترتقي شتى العلوم والفنون التي كان لها علاقة وثيقة بالإسلام والقرآن، عندما كانت العقيدة الدينية قوية في النفوس، بينما خبا نور الإيمان، فضعف الوازع الديني وهزل الحواس للإسلام، وتدهورت جميع العلوم والفنون التي بمشها واحتضنها حتى بلغت مرتبة ممتازة من الكمال، مما أدى في النهاية إلى انحطاط الحياة الثقافية، واضطراب أحوال المسلمين، لأن سر قوة المسلمين تكمن دائماً في العمل على قوة الإسلام

نحن المصريين أحفاد الفراعنة الذين أثبتت عقيدة البعث مشاعرهم الدينية، وأمدت عقولهم بطاقات خارقة لم تتوان في ابتكار مجد حضاري يحد العلماء لذة فائقة في التنقيب عنه. ونحن المصريين نؤمن بدين الإسلام باعث حضارة العرب وخالقها، وحملت الشعوب الإسلامية مصر لواء الإسلام وارتضت زعامتها الدينية والثقافية. فنحن المصريين إذا ورثة الفراعنة وحماة الإسلام، انصهرت في نفوسنا ديانات روحية تثير الوجدان، وتنشط العقل؛ فلقد حفزت عقيدة الخلود على تأسيس حضارة برعت في العلوم والفنون، وحض الإسلام على تكوين إمبراطورية فيسحة الأرجاء تدن بتعاليمه، ودعا إلى قيام حضارة جدت في خلق كثير من العلوم والفنون. فلشاعر الدينية والمواطف الروحية تلمب على الدوام دوراً هاماً في تطور حياتنا الثقافية. ولقد سبق أن أخبرنا التاريخ بأنه ما من فترة ضمت فيها الوازع الديني في نفوس قدماء المصريين، وخبا نور الإسلام في قلوب المسلمين، إلا اضمحل الفكر؛ وتأخرت الحضارة، وتفككت أوصال البلاد، وتدهورت أحوالها، وتعرضت للأغزو الأجنبي

ألا يوحى كل ذلك بأننا لا نملك أن نقيم حضارة تخرجنا مما نحن فيه من تخلف فكري ما لم نزرع إلى دوافعنا الدينية نستنهض بها هممنا، ونحث عقولنا على الخلق والابتكار، وما لم نسع من أجل إحياء مقوماتنا الروحية إحياء يحرك أذهاننا الخاملة، ويلهم نفوسنا، ويساعدنا على إظهار ما نملك من نبوغ قد يسوقنا إلى